

المصطلح الصوفي عند سعيد حوى - مصطلحات التسليك أنموذجا -

The Soufi terminology by Said HAWA

-Al Tasleek term as a model-

بن جبار سمية*

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر - 1، bendjebbarsoumia@yahoo.com

تاريخ القبول: 2019/04/05

تاريخ الاستلام: 2018/09/17

ملخص:

لقد اهتم سعيد حوى في ممارسته للدعوة، وفي أغلب مؤلفاته بموضوع التصوف، حيث عمل على تنقية هذا العلم مما لحقه من خرافات ومفاهيم زائفة تنافي جوهر القرآن والسنة، وسعى لإبراز مدى قوة هذا العلم في إصلاح القلب الذي به يتم التلقي الصحيح عن الله، والفهم السليم للمنهج الرباني، وقد اتخذ لتحقيق مسعاه منهجا مميزا، تمثل في تبسيط مصطلحات التصوف بتحديد في عرض معانيها، وذلك بتقديمه على أنه الروح التي تسري في أركان الإسلام والإيمان كلها، لئيدل كل إنسان على سير إلى الله صحيح، فيسلك طريقه إلى ربه وفق خطوات متكاملة. وتأسيسا على ما سبق يهدف المقال للكشف عن مصطلحات التصوف عند سعيد حوى، وعن المنهج الذي اتبعه في تبسيطها، وإبراز معاني مصطلحات التسليك عنده باعتبارها مفاتيح السير الصحيح، بإجراء مقارنة بين معانيها عنده وعند من سبقه من أهل الطريق كالقشيري وابن عربي والمحاسبي، لمعرفة التطور الذي لحق بالمصطلح الصوفي.

الكلمات المفتاحية: المصطلح؛ المصطلح الصوفي؛ التسليك؛ سعيد حوى.

Abstract:

Saied Hawa has paid a lot of attention in his mission ' Aldawa' practice and most of his books to Sufism. He tried to purify this science from mythological stories and false conceptions that contradicts Quran and Sunna. He attempted to show the power of this science to repair the heart by which the right teachings and the correct understanding of the sacred method are received from God.

He followed, to fulfill his attempt, a distinguished way ,in which he simplified Sufism expressions and renewed their meanings.

He presented Sufism as the soul of all Islamic and its faith basis. This soul leads every person to follow the right path to God according to complementary steps.

This research aims to reveal Sufism expressions in Saeed Hawa books, and his method to simplify them, and to underline the meanings of Al Tasleek expression in particular, for they are the keys of right motion, by comparing their meanings used by him to the ones used by previous Sufis like Kushairy, IbnArabi and Muhasiby, to see how Sufism expression has developed.

Keywords: elmoustalah ; elmoustalah sofi ; attaslik ; saaid hawa

مقدمة:

معرفة أي علم من العلوم، ووعي قواعده وأساسه، والكشف عن أسرارهِ ترتكز بالدرجة الأولى على استيعاب كامل لمصطلحاته، تلك الألفاظ اللغوية التي تمثل الوجه الظاهري له، تضرب بعمق في جذوره المفهومية المتشابكة المتنوعة مشكّلة مفاتيح للعلم الذي تنتمي إليه، «فالمقصود من الألفاظ دلالاتها على مراد الناطقين بها، فنحن نحتاج لمعرفة كلام الشارع لأن معرفة لغته... تدل على معرفة مراده وكذلك في خطاب كل أمة وكل قوم»⁽¹⁾ اذن فمهمة أهل كل علم تقريب مصطلحاته لغيرهم حتى يسهل الولوج فيه، وفهمه على الوجه الصحيح، للاستفادة منه واستثماره في الحياة الاستثمار الأمثل، كما أن على الدارسين لعلم

⁽¹⁾ ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، تحقيق عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،

معين الوقوف على مصطلحاته والدخول من خلالها إلى النص لفهمه لأن محاولة الفهم من غير التعمق في المصطلح تجعل الفهم مشوبا غير صحيح، فدراسة المصطلح بالمجمل هي: «بطاقة هوية المصطلح»⁽¹⁾.

ويسعى هذا المقال للتعريف بهوية مصطلح علم وقع في مباحثه خلاف كبير، وحول مصطلحاته جدل عريض منذ نشأته إلى يومنا هذا وهو علم التصوف الإسلامي، وبما أن كل علم لا محالة تطرأ عليه تغيرات ويمر بمراحل تطور على مستوى البنى والمصطلحات والمفاهيم مع مرور الزمن، فقد اخترت لدراسة المصطلح الصوفي الاسلامي مؤلفات سعيد حوى في التصوف، كواحد من المؤلفين المتأخرين المتميزين الذين كتبوا في هذا العلم بوعى وفهم عميقين بكل اصيل فيه ودخيل عليه، حتى ألحظ مدى التطور الحاصل في المصطلح، والكيفية التي قدمه بها لغالبية إما رافضة للتصوف بالجملة أو ليس لديها من العلم ما يمكنها من فهم هذا العلم من كتبه الأصيل.

حاولت من خلال هذا المقال الإحاطة بموضوع المصطلح الصوفي عند سعيد حوى، والكشف عن مجمل جوانبه بصفة عامة، مخصصة مصطلحات التسليك عنده وبالوصف والتحليل، لكونها تتقاطع مع مصطلحات التصوف الأخرى - كما سيتضح لاحقا-، وذلك من خلال عينة قصديه تمثلت في سلسلة "في التربية والتركية والسلوك" وتشمل ثلاثة كتب وهي: تربيتنا الروحية، والمستخلص في تركية الأنفس، ومذكرات في منازل الصديقين والريانيين، كما اعتمدت كتاب جولات في الفقهاء الكبير والأكبر لتناوله التصوف بالدراسة إلى جانب التوحيد والفقه.

(1) محمد بوكرن: تحديد المنهج في علم أصول الفقه - منهج الدراسة المصطلحية أنموذجا - يوم علمي تحت عنوان: "علم أصول الفقه وسؤال التجديد"، والذي نُظم يوم السبت الموافق لـ 11 نوفمبر 2013 في مقر مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 1E2F11DQQRW2F11E? =wach https://www.youtube.com/wach

وللوصول لهدف البحث المتمثل في الكشف عن مصطلحات التسليك عند سعيد حوى، والتعريج على أهم مصطلحات التصوف عنده، ومعرفة منهجه في عرضها، يتطلب بدايةً ضبط المفاهيم ليحدد بها السير الكلي للبحث، فبيان المعاني اللغوية لمتغيرات الموضوع يساعد على إجراء تعريف دقيق شامل لماهيتها مانع من دخول معاني بعيدة عن مفهومها.

أولا- ضبط مفاهيم الدراسة:

أ- المصطلح: بعد الرجوع للمعاجم والقواميس اتضح أنه لم يرد لفظ المصطلح صراحة، بل استخدموا الفعل منه واشتقاقاته كصلح واصطلاح، ف «فالصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد»⁽¹⁾ ويقال: «قد اصطَلَحُوا واصَّاحُوا وصَالَحُوا بمعنى واحد»⁽²⁾، وقدم الجرجاني الاصطلاح بمعانٍ متقاربة منها: «عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل من موضعه الأول؛ إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما؛ لفظ معين بين قوم معينين...»⁽³⁾، وبالنظر في هذه التعريفات نجد نوعاً من التقارب بينها وبين المعنى اللغوي؛ فتصالح قوم على أمر معين إِي اتفاهم عليه، واتفاق الأغلبية يدل على الصلاح والصواب في العرف العام وبالبرهان الاجتماعي، وعليه يمكن أن تعرّف المصطلحات بأنها: الألفاظ التي اتفق عليها أهل علم معين للدلالة على مفاهيم معينة وذلك لتمييزه عن غيره وحفظه من مصطلحات دخيلة بعيدة عن أصل هذا العلم فاقدة لحيويتها اللغوية بسبب التعريب أو الترجمة، أو هو رمز لغوي تواضع عليه أهل علم معين للدلالة على مفهوم معين في ذلك العلم.

وقد عرّف القاسمي المصطلحات العلمية بأنها: «مجموعة الرموز اللغوية التي تدل على مفاهيم تتعلق بفرع من فروع المعرفة»⁽⁴⁾، ويضع القاسمي للمصطلحات الجيدة شرطين هما: أن يمثل كل مفهوم أو شيء علمي بمصطلح مستقل وأن لا يستعمل أكثر من مصطلح واحد لتمثيل المفهوم العلمي الواحد⁽⁵⁾ وبذلك فإن المصطلحات يجب أن تنحصر دلالاتها على المفاهيم التي وضعت لها في علم محدد مع جواز استخدامها للدلالة على مفهوم آخر في علم

(1) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، د. ط، دار الفكر، بيروت، د. ت، 303/3.

(2) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط 6، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت، ص. 229- أنظر أيضاً جمال الدين ابن منظور:

لسان العرب، دار صادر، بيروت، 517/2

(3) الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، د. ت، ص. 44-45

(4) علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ط 1، مكتبة لبنان، 2008، ص. 193

(5) المرجع نفسه: ص. 195

آخر، لكن هذين الشرطين وغيرهما قد لا ينطبقان على كل المصطلحات العلمية، لأن منها ما يطرأ عليها التبديل والتغيير «ولا تثبت دلالتها على وتيرة واحدة بل يعترتها الاستبدال والسعة والضيقة»⁽¹⁾ ما يجعل معانيها تتعد عن المدلول اللغوي العام، فهناك من المصطلحات ما انقطع تماماً عن المدلول اللغوي العام كالمصطلح الصوفي- كما سيتضح لاحقاً- «فالمصطلح الواحد قد تختلف معانيه داخل العلم الواحد لاختلاف المدارس الفكرية والأطر المرجعية للمفكرين والعلماء داخل هذا العلم أو ذاك»⁽²⁾.

ب- المصطلح الصوفي: عرّف ابن عربي المصطلحات الصوفية على أنها «الألفاظ التي تواطؤوا عليها والتي بها يفهم بعضهم بعض كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم»⁽³⁾ لكن بالنظر في مصطلحات هذا العلم نجد أن أهله تواضعوا على مصطلحات عديدة مختلفة، تتفرد بصفات تعد عيوباً في المصطلح العلمي كالاشتراك اللفظي⁽⁴⁾ حيث يحمل المصطلح الواحد فيه دلالات مختلفة، وألبست بعض المصطلحات معاني خاصة تحمل دلالات تفارق أصل الوضع اللغوي، «فمنها ما ضيقت دلالاته فخصص ومنها ما وسعت دلالاته فعمم ومنها ما صار رمزاً تتوارى خلفه دلالات لا يقف عليها إلا أهل هذا الطريق أو أعلامه أو خاصته»⁽⁵⁾ وذلك لأغراض لهم كما يوضح القشيري في الرسالة «... وهذه الطائفة الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيها لأنفسهم، والإجمال والستر على من داخهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرتهم منهم

(1) سعد عبد الله عاشور: المصطلح الإسلامي في مواجهة المصطلحات الغازية، بحث مقدم لمؤتمر الاسلام والتحديات المعاصرة، افريل 2008، ص. 194

(2) علي محمد جمعة: المصطلح الأصولي مشكلة المفاهيم، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ص. 22

(3) محي الدين ابن عربي: شرح معجم اصطلاحات الصوفية، شرح: سعيد هارون، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008، ص. 8

(4) اللفظ الواحد الدال على معنيين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة (عبد الحليم محمد قنيس: معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص. 7)

(5) ديوان محمد الوفا الشاذلي: تحقيق: مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت: ص. 29

على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها..»⁽¹⁾، وعلى الرغم من اجتهاد أهل الطريق في صيانة علمهم بمصطلحات تميز بين الغرابة والصعوبة إلا أن لطافة معاني العلم في حد ذاتها وارتباطها بالشعور والوجدان جعلتها عرضة للفساد وسوء الفهم والتحريف، فالمصطلحات الصوفية هي «ألفاظ لا تعرف عن طريق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف»⁽²⁾ وهذا لا يكون إلا لسالك مداوم على مخالفة أهوائه عارف بأسرار السلوك، فاللغة بين أهل الطريق ما هي إلا رموز وإشارات وذلك راجع لطبيعة التجربة الصوفية، فالممارسة الذوقية شيء والتعبير عنها شيء آخر يتمثل في عودة الصوفي من الأعماق إلى الآفاق على حد عبارة سعاد حكيم.

فترجمة الوجد الذي يفيض على قلب الصوفي في رحلته يحتاج إلى لغة قوية، تقرب معاني هذا الفيض إلى غير أهل الطريق ليفهموه كما هو، وهذا قل ما وقع لأن الوجد في قوته يملك الصوفي، فيعبر عنه بعبارات قد تكون غريبة «فالمرید الواحد إذا قوي وجده ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه سطع ذلك على لسانه فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهم سامعيها؛ إلا من كان من أهلها ويكون متبحرا في علمها فسمي ذلك على لسان أهل الاصطلاح شطحا»⁽³⁾ لهذا كثيرا ما دعا أرباب التصوف مریديهم إلى كتمان ما يجدونه من مكاشفات خشية على هذه الأسرار من سوء الفهم كما ذكر القشيري، لكن ما يشعر به الصوفي في طريقه إلى ربه، وما يرد عليه من أحوال مختلفة تأسر روحه تدفعه دفعا للبوح لا الكتمان تخفيفا لما يجده في قلبه فمثلا «تصير شدة المحبة سببا في ورطة تعبيرية وتقلبية مع الأغيار وسببا للإنكار من الصوفية أنفسهم»⁽⁴⁾ لما يتولد عن ذلك

(1) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، د.ط، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1989، ص.130.

(2) حسن الشراقوي: معجم الفاظ الصوفية، ط1، مؤسسة المختار، القاهرة، 1987، ص.7.

(3) أبي نصر السراج الطوسي: اللمع، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، ص.454.

(4) أسماء خوالدية: المحبة عند الصوفية بين تحفظ العذريين ورعونه الفتيان، ط1، دار الأمان، الرباط، 2016، ص.165.

من مصطلحات مشكلة الفهم على غير أهل الطريق «... فيفهموها على خلاف الصواب فيفتنوا أنفسهم أو يفتنوا غيرهم»⁽¹⁾ والهدف ليس فتنة غير الصوفي وإنما تقريب المعاني المستخلصة من التجربة الروحية له حتى يسلك الطريق إلى ربه عن دراية وقصد ومحبة.

ج- التسليك: الصوفي في رغبته الوصول إلى معرفة ربه يضع نفسه على أعتاب تجربة وجدانية، تتطلب معرفة بالنفس ومكامنها وأهوائها، ولا يخفى ما لنفس الإنسان من قوى ورغبات تتجاذبه بوجوه مختلفة؛ فيحتاج لترويضها وتهدئتها لمن هو أعلم منه بخباياها ومفاتيح اخضاعها، حتى يدله على كيفية مجاهدتها وقتل أهوائها.

فكان في مراحل من السير إلى الله عند أهل الطريق ضرورة وجود شيخ مرشد متخصص، مهمته توصيل المريد الذي يريد الوصول بتأهيله لآداب الحضرة الإلهية، وهنا يظهر معنى التسليك، هذا المصطلح الذي لم يرد لا في المعاجم، ولا في القواميس، ولا حتى في كتب التصوف، بل ورد الفعل منه، والاسم، وكذلك المصدر (سلك - سلوك - سالك) فلم يوضع له تعريف يوضحه إلا في المعجم الصوفي لسعاد حكيم حيث عرّفه على أنه «العملية التي يتولى فيها المرشد أو الشيخ مهمة توصيل الفرد أو المريد إلى الحضرة الإلهية، وهي عملية تخضع لجملة عوامل تتجاذبها قوى مختلفة: نوعية المريد، طاقته، قوى ونوازع نفسه وطغيان غرائزها، أهليته الروحية، مقدرة المرشد، درجة إجازته»⁽²⁾، أوردت سعاد مجموعة من الأسس يتوقف عليها نجاح عملية التسليك تتعلق بكل من المريد والشيخ كطاقة المريد النفسية والروحية للتلقي وتعلم أسرار الطريق من شيخه، وكذلك مقدرة الشيخ على هذا الدور، وتمكنه من أدائه على النحو الذي يحقق به المراد، وعليه يمكن أن يعرف التسليك على أنه: التربية التي يتلقاها السالك إلى الله على يد عالم بالطريق وأسرارها، وهي تربية شاملة تؤهله خلقيا ونفسيا وروحيا ليكتسب القدرة على مواصلة السير لربه بالآداب المطلوبة التي تمكنه من المعرفة.

(1) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مرجع سابق، ص. 132

(2) سعاد حكيم: المعجم الصوفي، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1981، ص 721

تنصب عملية التسليك بالمحمل على تعريف الراغب في السير إلى الله بأصل معيقات هذا السير وهي النفس، وإرشاده وتوجيهه إلى كيفية تركيتها وتهذيبها، بناء على ما لاقاه المسلك أو العارف في طريقه، وما شهدته، وما وصل إليه «فإن سألته وجدته بصيرا بالطريق إلى الله سبحانه وإن أجابك أجابك بالوصف عن طريق قد سلكه، وعن آفات قد رفضها، وعن مكابدة قد جاهدتها، وعن درجات في القرب من الله سبحانه بعلم قد ارتقى إليها، فدل المريدين على ابتدائه وما عرض له من قواطع وبأي شيء قطعها، وأنه لم يصل إلى السرور والراحة إلا بعد المكابدة والمجاهدة، لأن يتحملوا مثل ما لقي حتى يفضوا على الغنى والراحة والسرور»⁽¹⁾، في عبارة المحاسبي يظهر أن التسليك هو نقل كل معاني التجربة من رجل بصير بالطريق إلى الله إلى المريـد، وتوضيح كل ما يتطلبه سلوك هذا الطريق من صبر ومجاهدة... وتبشير بثمرة المكابدة التي سينالها.

وبالنظر في مختلف النصوص عند سعيد حوى نجد أن التسليك عنده هو إرشاد الأخ أو المتعلم إلى سير إلى الله صحيح، بتعليمه سبل إصلاح القلب ليصلح سلوكه، وتوجيهه للطرق السليمة للتعامل مع مطالب النفس لتزكيها، وتربيته على التخلق بالخلق النبوي والتحقق بالشرعية، وهذا لا يتم إلا بشيخ مربٍ عارف بربه وبالأسرار الموصلة إليه.

هذا التوجيه والإرشاد أو نقل التجربة الصوفية من الشيخ للمريد يتطلب توضيحا تفصيليا لمراحلها التي تحوى علم الشيخ، ومذهبه، ومجاهداته، ومكاشفاته، إذن فالتسليك يتضمن جملة من المصطلحات منها ما هو خاص بالطريق كالسفر والسلوك والسالـك والمقامات والأحوال والمجاهدة والوصول والغاية... ومنها ما ينتمي إلى التجربة الصوفية كالوارد والخواطر والتجربة... ومصطلحات أخرى تخص مذهب أهل الطريق كالشيخ والمريد والطريقة والولاية والفيض والإرادة... كما يتضمن التسليك أيضا المصطلحات الخاصة بالمقامات

(1) الحارث بن أسد المحاسبي: بدء من أناب إلى الله، تح. مجدي فتحي السيد، ط1، دار السلام، القاهرة، 1991، ص.

والأحوال كالصبر والزهد والخوف والمحبة...وعليه فمصطلحات التسليك تتعدد بتعدد جوانب الممارسة الوجدانية، لذلك فدراساتها تعطينا صورة واضحة عن التصوف العملي ومصطلحاته.

ثانيا- سعيد حوى ومصطلحات التصوف في مؤلفاته:

نشأ المصطلح الصوفي مع نشوء الفكر الصوفي، ونما وتطور بتطور هذا الفكر في أغراضه ومعانيه، فقد شهدت حركة الزهد والتصوف مع بدايات القرن الرابع للهجرة تطورا ونضجا، حيث تفرعت اصطلاحاته وشملت مجالات فلسفية وكشفية، إضافة إلى مصطلحات القرن الأول للتصوف وهي مصطلحات خاصة بالزهد والسلوك، وقد قسم رفيق العجم مسار تطور المصطلح الصوفي على أربعة مراحل؛ المرحلة الأولى سماها مرحلة الظهور والنشوء كان فيها المصطلح الصوفي محصور المعاني والأغراض، يدور حول الحب والزهد والمجاهدة والسلوك، ومرحلة تبلور المصطلح ونضوجه؛ وهذه المرحلة ظهر فيها الشطح وما يحمله من وجد فاض به اللسان، وظهر المصطلح الفلسفي الإشارقي الذي طغت ألفاظه على المعاني الصوفية، ومرحلة الاكتمال النسبي للمصطلح الصوفي زاده ابن عربي وأغناه، وقام بعملية جمعه، وظهرت في هذه المرحلة المصنفات، ومن المتصوفة من وضع مفاهيم جديدة، اما المرحلة الأخيرة فتتسم بجفاف الإبداع في المصطلح وتكرار ماسبق وشرحه⁽¹⁾.

تقسيم رفيق العجم لم يبرز مرحلة تأليف مصنفات السلوك التي تناول التفصيل في منهج التسليك عند أغلب أصحاب الطرق، في حين أشارت سعاد حكيم إلى هذه المرحلة، مبينة أن الصوفية لم يهتموا قبل القرن السابع للهجرة بتدوين مصنفات في السلوك، بل دونوا في الفكر الصوفي وعاشوا وفقا للسلوك الصوفي، وأن مصنفات التصوف العملي لم تتعدد إلا بعد القرن السادس والسابع للهجرة، المرحلة التي دخل فيها التصوف مرحلة التربية الصوفية ومناهج التسليك، فكثر مريدو الصوفية وقل مفكروها وهو ما أطلق عليه رفيق العجم في المرحلة الأخيرة بجفاف الإبداع⁽²⁾.

(1) رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ط1، مكتبة لبنان، 1991، ص xv-xvii

(2) سعاد حكيم: مرجع سابق، ص. 722

فاغلب الذين كتبوا عن التصوف عملوا على تقريبه لغيرهم، لتيسير فهم مباحثه ومعانيه، فقد أفرد بعض الصوفية مؤلفات خاصة بمصطلحاتهم، سعى منهم لكشف المعاني الكامنة وراءها، ومحاولة لشرح الألفاظ الجارية على ألسنتهم؛ ذلك لاتصاف مصطلحاتهم بنوع من الخصوصية والرمزية، فكان اللّمع للطوسي من أول المصنفات التي تولت شرح مصطلحات الصوفية، ويعد بمثابة مرجع أصيل للتعرف على مصطلحات القوم، ثم كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف للكلاباذي، وكذلك القشيري الذي أفرد بابا في كتابه الرسالة لألفاظ الصوفية، وبعده ابن عربي الذي تميز معجمه بألفاظ خاصة، ومنهج مميز في عرض المصطلحات، ثم بعد ذلك ظهرت المعاجم كاصطلاحات الصوفية للقاشاني، وتلته - بعد فترة من الزمن - معاجم أخرى لباحثين في التصوف كمعجم الكلمات الصوفية لأحمد النقشبندي، والمعجم الصوفي لسعاد حكيم، حيث تعرضت فيه لمصطلحات التصوف عند ابن عربي دون غيره من أعلام التصوف.

ولم تكن المعاجم فحسب دليلا لفهم التصوف وتذوق ألفاظه، وإنما هناك مؤلفات في القديم والحديث سعت لتنقية هذا العلم مما خالطه من انحرافات، ومفاهيم تناقض الكتاب والسنة، وتبسيط معانيه مثل إحياء علوم الدين للغزالي، والرعاية لحقوق الله للمحاسبي، وكشف المحجوب للهجويري، ومن المؤلفات الحديثة مؤلفات سعيد رمضان البوطي وكذلك مؤلفات سعيد حوى التي تكشف هذه الدراسة عن المصطلح الصوفي فيها.

أ-نبذة عن حياة سعيد حوى⁽¹⁾:

هو أبو محمد سعيد بن محمد ديب حوى ولد بحماة 1935م من أسرة فقيرة، عاش حياة صعبة؛ فقد أمه في السنوات الأولى من ولادته فرعته جدته، ساعد أباه في عمله فعمل تاجرا وحمالا ومحاسبا معه في بيع الخضار بالجملة، تربى تربية أخلاقية ودينية، كان مولعا بالمطالعة فقد قرأ لأرسطو وأفلاطون، كما قرأ في التصوف والأخلاق فتميز في مجالات عديدة

(1) ينظر: سعيد حوى: هذه تجربتي هذه شهادتي، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، 1987، ص. 7-15، وينظر أيضا: عبد الله عقييل: من أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة، دار البشير، الرياض، 7، 2008، ص. 267-283.

كالخطابة، انضم إلى جماعة الإخوان سنة 1952م وهو لا يزال طالبا في الصف الثانوي، التحق بكلية الشريعة بجامعة دمشق سنة 1956م وتعلم على يد كبار أساتذتها منهم عبد الكريم الرفاعي، ومحمد الحامد ومصطفى السباعي، وبعد تخرجه في جامعة دمشق سافر إلى المملكة العربية السعودية ومكث بها أربع سنوات مشغلا بالتدريس، وبعد أن عاد إلى دمشق تم اعتقاله بسبب نشاطه السياسي... كما ارتحل إلى بلدان عربية وأجنبية كثيرة للدعوة والتدريس كالكويت والأردن والإمارات وأمريكا وألمانيا.

كان سعيد حوى جريئا في قول الحق وكتابته، كما عرف بتواضعه وزهده، ورقة قلبه، وبساطة مظهره وحرصه على التعب والسعي في قضاء حوائج الناس. وقد اخذ عن الشيخ محمد الهاشمي الجزائري شيخ الطريقة الدرقاوية في دمشق علم العقيدة، كما اخذ عنه ورد الطريقة، فقد تأثر بالهاشمي وأحبه كما تأثر بأستاذه محمد الحامد في جماعة الإخوان المسلمين، لذلك جمع بين العمل الدعوى والتصوف.

توفي سعيد حوى سنة 1989 بعد معاناة طويلة مع المرض عن عمر لم يتجاوز الثالثة والخمسين، ترك مؤلفات عديدة حظت باهتمام الباحثين منها رسالة ماجستير تحت عنوان سعيد حوى ومنهجه في التفسير للباحث سعدي زيدان، من مؤلفاته اضافة لما تناولته هذه الدراسة اذكر: كتاب كي لا نمضي بعيدا عن احتياجات العصر، وكتاب الأساس في التفسير في إحدى عشر مجلدا، الأساس في السنة وفقهها في أربعة عشر مجلدا وغيرها من المؤلفات التي لقيت قبولا كبيرا بين الناس على اختلاف مستوياتهم.

ب- منهجه في تقديم علم التصوف:

بعد تناول موضوعات التصوف في مؤلفات سعيد حوى بالدرس، تبين أن المصطلح الصوفي عنده يشكل ظاهرة بارزة وسمّة مميزة يحاول من خلاله الكشف عن آرائه واجتهاداته في قضايا التصوف، فلم ينطلق في دراسته له من فراغ أو ترف علمي، لكن من إحساسه ووعيه بحاجة الأمة بصفة عامة، والحركة بصفة خاصة لفهم سليم لهذا العلم، ووعي بأهميته، حتى يتم تفعيل الإحسان ركن الدين الثالث في تفاصيل حياة كل مسلم.

فإدراك سعيد حوى للصعوبة التي تواجه القارئ للتصوف، جعله يرى ضرورة إخضاعه وتذليله لكل منتم له، ولكل مسلم يرغب في السير إلى الله، وهذا ما دفعه لتأليف سلسلته الصوفية حيث يهدف فيها إلى نوع من التبسيط، والابتعاد عن المصطلحات مشكلة الفهم، فقد حاول أن يقدم نوعا من التصوف المحرر على ضوء الكتاب والسنة، ومذهب أهل الحق لإيمانه أن هذا وحده هو الذي يجب أن يكون، وأن يصير إليه الناس جميعا.

فقد عمد إلى وضع قدم المسلم في سير إلى الله صحيح خال من الخطأ، وعمل من خلال مصنفاته على رسم الطريق لوجود طبقة من الوراث الكاملين لرسول الله، يحملون دعوة الله كاملة ويربون الناس ظاهرا وباطنا على الحق.

كما يعد التصوف في نظر سعيد حوى هو علم التحقق بالكتاب والسنة على ضوء الفهم الصحيح لهما، لذلك يرى أن من أوجب الواجبات في هذا العلم هو -التسليك- أن يُدل الإنسان على السير الصحيح إلى الله، وأن يحجر التصوف من دخنه، لتكون لدى المسلم مناعة من الوقوع في أسر الجهل، كل ذلك من أجل الوصول إلى تربية روحية واقعية، ويؤكد أن دراسة علم التصوف إلى جانب علم الفقه وعلم التوحيد، تشكل جزءا من تطورات الحركة الإسلامية، وأن سلامة الحركة في الحاضر، ومقتضياتها في المستقبل تقتضي دراسة علم التصوف دراسة صحيحة مستقاة من الكتاب والسنة.

يرى سعيد أن قضية تزكية النفس، وتقوى القلب، والمراقبة في العبادة، والتحقق بمقامات الإيمان، والإسلام، والإحسان، شيء رئيس في حياة الفرد المسلم، وهي معان تتحدث عنها نصوص الكتاب والسنة، وأن المتصوفة هم أكثر بحثا واستقصاء عن طرق التحقق بهذه المعاني، وهم الذين سجلوا كيفية السير للوصول لها، لذلك يقتضي تحديد هذه المعاني واصطلاحاتها، ليمثلها المسلم في حياته، لأن الناس مختلفون استعدادا، ومختلفون أحوالا، لفهم هذا العلم؛ فهو علم عملي شعوري لا تحصل للإنسان معرفة به إلا بالعمل.

في حديثه عن مباحث علم التصوف أكد - كغيره من المؤلفين في هذا العلم - أنه ذو جانبين نظري وعملي، وأنها هي مجالاته الرئيسية التي تتفرع عنها مجالات أخرى، تتطلب اصطلاحات لغوية، ومصطلحات علمية، وتعبيرات خاصة، وهذا يقتضي خطأ يحتاج إلى تحقيق، وتحرير، وتنقيح، يضع الأمور في الإطار الصحيح، إذ تعرض للمجالات التي يراها أساساً في هذا العلم بالشرح والتقريب وهي الروح والعقل والقلب والنفس.

ج- المصطلحات الصوفية المحورية عند سعيد حوى:

عند إحصاء مصطلحات التصوف الواردة في مؤلفات سعيد حوى المعتمدة في هذه الدراسة، تبين أن النوع الحاضر بقوة عنده هي المصطلحات المتعلقة بالسير والسلوك، أي ما تعلق بالتصوف العملي وهي : التزكية، التطهر، التحقق، التخلق، السلوك، العبادات، المقامات، أدب، الذكر، المبتدئ، المجاهدة، معرفة الله، القرب، الترقى، القصد، السفر، الطريق، المحاسبة، المراقبة، جهاد النفس، التوبة، الذكر، الحضور، آداب الباطن، علم الخشوع، علماء الآخرة، الغفلة، حضور القلب، الثقة القلبية، المتعلم، المريد، الشيخ، الصبر، التقوى، تزكية النفس، الجوهر، وهذا الأخير

1- الجوهر: ورد مرة واحدة للإشارة إلى -الباطن، الجانب الروحي للإنسان-، مع أنه استعمل مصطلح الباطن بكثرة كعبادة الباطن... قرب الباطن إلى الله لكن الجوهر استعملها بالسلب بقوله "نجس الجوهر إي باطنه ملطخ بالخبائث"، «فالجوهر عبارة عن الأصل وأصل الأشياء كلها وجود الحق تعالى»⁽¹⁾ يريد أن يؤكد بهذا المصطلح أن النجاسة غير مقصورة على المظهر، وإنما أصل الإنسان الذي هو قلبه يمكن أن يكون نجساً بإشراكه بربه، وبابتعاده عن الصراط المستقيم، فكانت دعوة سعيد من خلال الحديث عن التصوف بالتنبيه على المسؤولية الباطنية قبل الظاهرية، فيها يتشكل النموذج الأرقى لإنسان هذا العصر وكل عصر، وهي المسؤولية التي استقرت في الوعي الصوفي، وبها أدرك القيمة الوجودية للحياة. أما المصطلحات المتكررة هي:

(1) رفيق العجم: مرجع سابق: ص. 264

2- تزكية النفس: كان ورود هذا المصطلح بارزا وخاصة في كتابه "المستخلص في تزكية الأنفس" الذي تمحور حول كيفية التزكية، وشرح السبل التي تمكن المسلم من استمرارية المراقبة، والمجاهدة، لتحقيق الارتقاء إلى التحقق بالعبودية.

استخدامه للمصطلح كان بالتأصيل القرآني له، حيث أورد كل الآيات التي تحت على التزكية، أما تقديمه للكيفية التي تتم بها فجمع بين المعاني القرآنية التي ترشد إلى تنقية النفس، وتطهير القلب من أمراضه، والسمو بالروح بالترقي في العبادة والذكر، وبين منهج المتصوفة في ذلك، المستقى هو أيضا من الكتاب والسنة، فالتزكية عندهم تتمثل في «اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة، حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرر مع تقارب الزمان، حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال... بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع، فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير»⁽¹⁾ وهذا يتداخل مع مصطلح آخر ورد عنده أيضا بشكل ملفت وهو مصطلح:

3- التطهر: أراد به تنقية الباطن من كل الشرور، والتخلي عن ما يصيبه من الحقد والحسد والشك والرياء... والتخلي⁽²⁾ بكل أفعال الخير وكل ما يتوافق مع الفطرة السليمة، والتقوى بالعبادات، وأدائها على الوجه الذي يحقق الغرض منها، وهو معرفة الله، والخضوع له، وهو عند المتصوفة «الانتقال من الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير، وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء... والنفس تجزع من التطهر، وتفر على أعمال الطاعات لثقل التطهر عليها، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة»⁽³⁾، يبين هذا القول أهمية تطهير الباطن، وتزكيته في تذوق الطاعات والتحقق بها، لا مجرد أدائها لتحقيق التكليف، فالحاجة اشد لمعرفة السبل التي يطلب منها الخير، وتوصل إلى الله، من الحاجة لأداء الطاعات كونها فروضا.

(1) المرجع نفسه: ص. 173.

(2) ويطلقه في بعض المواضع ويقصد به التحقق

(3) الحارث بن أسد المحاسبي: آداب النفوس، تحقيق: محمد فتحي السيد، ط1، دار السلام، القاهرة، ص. 76.

4- حضور القلب: في أداء العبادات أمر مطلوب ومن الصحابة من اشترطه لصحة الصلاة⁽¹⁾، كرر هذا المصطلح مؤكداً به معنى الإحسان -أن تعبد الله كأنك تراه-، ويشير أنه مماثل في المعنى لمصطلح الجمع أو وحدة الشهود، كما يرى أنه لا يمكن اشتراط حضور القلب على الناس في جميع الصلاة مثلاً، المهم أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك، لكن وجب حضور القلب على الأقل في جزء من الصلاة، لأن من عرف سرها علم بأن الغفلة تضادها.

فالحضور هنا خاص وغير ميسر للكل، إلا بمجاهدة وتوفيق الهي، فلو انصرف في الفكر إلى غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم يكن فيه غفلة حصل حضور القلب، فينشأ التعظيم وهو حالة بالقلب تتولد من معرفتين؛ معرفة جلال الله ومعرفة حقارة النفس، فمعاني هذا المصطلح عنده تعتبر أساس السير، فلو أدى المريد كل خطوة في طريقه من بدايته لمنتهاه بقلب حاضر تمكن من الانتقال الصحيح، وتحقيق صلاح القلب، الذي يستعاد به الشعور الحقيقي بالله .

5- المجاهدة: للنفس وترويضها، وتأديبها، وحملها على ما يشق عليها، من صلاة وصيام وذكر، ومخالفة هواها بترك الركون لها، والسعي في تهذيبها وتربيتها، ورد هذا المصطلح في مختلف النصوص عند سعيد حوى، حيث يدل عنده على أي وسع مبذول لتحقيق تزكية النفس، والمجاهدة عندهم-الصوفية- تدور في مدار هذا المعنى، وعُبر عنها بتعبيرات متنوعة فهي: «فطم النفس على المألوفات وحملها على مخالفة هواها وخرق عوائدها في جميع الحالات»⁽²⁾، كما أنها لا تجب فقط على المبتدئ، وإنما يلزم بها العبد مادام في سيره، فتتبدل بتبدل أحواله فتبدأ «بمجاهدة الظواهر -وذلك -بدوام الطاعات وكف المنهيات، ومجاهدة

(1) فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وع معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متمعداً وهو في الصلاة فلا صلاة له. (أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، ط1، 2003، 148/1)

(2) أحمد ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، دار البيضاء، ص.38

البواطن بنفي الخواطر الرديئة، ودوام الحضور في الحضرة القدسية، ومجاهدة السرائر باستدامة الشهود، وعدم الالتفات لغير المعبود»⁽¹⁾.

وتمثل التوبة عنده أقوى وسائل المجاهدة، فهي أقرب للوسائل منها للثمرات، فبقدر ما تكون الوسيلة كاملة يكون أثرها كاملا، فالطريق عند الصوفية على وجه العموم هو التوبة يقول إبراهيم بن أدهم: «والواقع أن التوبة الصادقة النصوح هي الابتداء الطبيعي في الطريق إلى الله... فالناظر في مرآة التوبة يتبين له شين قبح المعصية»⁽²⁾ فإن تاب العبد أدرك خطورة المعصية، همّ بمجاهدة نفسه وإصلاح قلبه، فالغاية لا تدرك بكثرة المجاهدة بقدر ما تدرك بسلامة القلب، التي جعلها سعيد بداية السلوك الصحيح، فمهما «منع - المرید - نفسه الشهوات وقطع العلائق والأسباب، وتجنب الأفراح حتى استفرغ مجهوده في المجاهدة بقي مضطرا متحيرا... لأنه وإن جاهد النفس حق المجاهدة فإنه لا يطيق أكثر من أن يمنعها ذلك... فأما الشهوات فباقية، وضيق الصدر بالأخلاق السيئة باق، فعند ذلك يفزع إلى الله تعالى ويلجأ إليه بصدق الفزع والاضطرار.. فيكشف الله السوء عن صدره وقلبه»⁽³⁾. وهذا ما يؤكد سعيد؛ فالمجاهدة مربوط بنجاحها بتوفيق الله ككل عمل يراد به وجه الله تعالى، فهي نقطة انطلاق نحو صحة النفس، وسلامة القلب، فهناك من يشتغل بالمجاهدة لكن لا يصل إلى الطريق، وهناك من يصل إلى الطريق لكن لا يدرك إلى حقيقته.

مصطلح المجاهدة عند سعيد لازم مصطلح تركية النفس، وكما أراد بها الخروج عن هوى النفس بإلزامها بما فرضه الله عليها، أراد بها أيضا تهذيب الباطن الذي اصطلح عليه بعض الصوفية بالرياضة، ومنهم يجعل كل مجاهدة للنفس سواء ما تعلق بالظاهر أو الباطن رياضة، فالرياضة عندهم رياضة الأدب وهي مخالفة الهوى، ورياضة الطلب هي تهذيب الأخلاق، وهذه المعاني دل عليها سعيد بمصطلح المجاهدة مستبعدا مصطلح الرياضة لغرابته على القارئ رغم انتشاره في كتب التصوف.

(1) المرجع نفسه: ص. 38

(2) عبد الحليم محمود: إبراهيم ابن أدهم شيخ الصوفية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1972، ص. 129

(3) الحكيم الترمذي: آداب المريدين وبيان الكسب، تحقيق: عبد الفتاح بركة، مطبعة السعادة، القاهرة، ص. 20

هذه المصطلحات (تزكية النفس، التطهر، حضور القلب، المجاهدة) تمثل البداية الصحيحة لسلوك الطريق، وبها يكون التسليك -إضافة لما سيأتي من المصطلحات- فمن زكى نفسه وطهرها، واستمر في مجاهدة أهوائه مهما ترقى في المنازل، وكان قلبه غائبا عن الخلق حاضرا بذكر ربه، فإنه يحظى بالتلقي الكامل من ربه، وهذا ما يصطلح عليه سعيد بالقلب العارف.

ثالثا- منهجه في عرض مصطلحات التسليك:

يؤكد سعيد حوى في أكثر من موضع على ضرورة وجود شيخ يرشد السالك في طريقه إلى الله، خاصة وأن الاستعدادات العقلية، والنفسية، مختلفة عند البشر، وقد رتهم على فهم ووعي ما كلفوا به تقترب للصحة عند البعض، وتبتعد عنها عند البعض الآخر، فقد بين ما يحتاجه السالك للسير من عند نفسه كالرغبة في السير، والصبر على كسر شهوات النفس، وأنه لن يؤدي ذلك تمام الأداء إلا بمربٍ مؤهل للإرشاد، يدلّه على آداب، وقواعد السير التي مر بها، هذا الوصف -الأهلية للإرشاد- أكد على ضرورته أغلب المتصوفة، إضافة إلى أن «بعض الطرق تشترط أخذ بيعة العهد الصحيحة، والإنابة من شيخ كامل عامل واصل»⁽¹⁾ فكما يقال من المريد الاستعداد ومن الشيخ الإمداد؛ إذن يتبن أن في علاقة المريد بالشيخ ونتائجها تدور مصطلحات التسليك.

وقد قام سعيد حوى بعرض هذه المصطلحات تحت عناوين مختلفة، كالسير إلى الله، آداب السالك إلى الله، بدايات السير إلى الله، مفصلا كيفية هذا السير معتمدا على مؤلفات متنوعة لأهل الطريق، من أبرزها كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري الذي قام بشرح مقتطفات منه مثلث ثلثي كتاب مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، وكتاب إحياء علوم الدين، الذي يعتبر المستخلص في تزكية الأنفس تلخيصا له، وعليه كانت مصطلحات التسليك عنده هي ما تواضع عليه الصوفية في هذا الباب، لكن استعماله لها كان بعناية شديدة، حيث ابتعد عن المصطلحات التي تعدد دلالاتها، حيث تشمل مفاهيم تتوافق مع

(1) رفيق العجم: مرجع سابق، ص. 578.

المنهج الرباني، ومفاهيم أخرى خارجة عنه، مثل مصطلحي الفناء والبقاء الذي يشير في مواضع للفناء أو التخلي عن الصفات المذمومة، والتخلي أو البقاء بالصفات الحمودة، كما يشير في مواضع أخرى إلى الاتحاد والحلول، وهذا المعنى -الاتحاد والحلول- يفهمه ويعتقده من ليس له معرفة صحيحة بهذا العلم، فقد استعمل سعيد حوى بدل مصطلح الفناء مصطلح:

1- صوم القلب: قال عنه أنه صوم خصوص الخصوص، ويعني صوم القلب عن المهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عن ما سوى الله بالكلية ويحصل:

2- الفطر المجازي: في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين، فيدلل سعيد بمصطلح الفطر المجازي على مصطلح البقاء.

ويستعمل الصوفية مصطلحي الفناء والبقاء للتعبير عن حالتي وحدة الشهود ووحدة الوجود، فحال وحدة الشهود هي حال الفناء، وحال وحدة الوجود هي حال البقاء، والفناء والبقاء متلازمان أي فناء عن الخلق بقاء بالحق، وبحكم بشرية الصوفي فإن فناءه عن الخلق وبقاءه بالحق ليس على الدوام، لاشتغاله ببعض شؤونه الحياتية أو دنيا تراد إلى الدين -على حد قول سعيد حوى- يجعله باق بهذه الشؤون حتى لو كانت تُقربه إلى الله، فان عن الحق بالكلية، وحتى يتخلص الصوفية من هذا المصطلح -الفناء عن الحق- الذي لا يليق بهم ولا يليق بأي مؤمن موحد، اصطلاحوا على هاتين الحالتين بمقامي الجمع والفرق «فلا بد للعبد من الجمع والفرق فان من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له فقوله تعالى إياك نعبد وإشارة إلى الفرق، وقوله تعالى إياك نستعين إشارة إلى الجمع... فالفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك، ومعناه ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع»⁽¹⁾. كما اصطلاح سعيد على المعنى نفسه بمصطلح آخر وهو:

(1) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مرجع سابق، ص. 144.

3- الاستغراق الروحي: قال الاستغراق الروحي أو ما يسمى عندهم بمقام الفناء ثم البقاء هو واحدة من مراحل السير وجزء منه، ليس كما يقصر بعضهم السير كله على هذا المقام، وقد أورد مفهوم هذا المصطلح في عدة مواضع من غير إيراد المصطلح، ويوضح أنه من يرى استغراق روحه في الوصول هو التحقق بالعبادات، ومعرفة الخالق جل وعلا التي تعد أسمى الغايات، وأن من يعتبر الوصول إلى سلامة القلب، هو ذروة سيره إلى الله منشغلاً بتحقيقها، والوصول لها على حساب تطبيق أوامر الله، التي يحسن تلقيها القلب السليم، وغفل عن واجبات الوقت الكثيرة معتقداً أن ما هو عليه عين الكمال، فهذا غلط كبير.

4- الانتقال: عبّر سعيد بهذا المصطلح عن السير إلى الله، فأراد به أن السير والسلوك إلى الله جل وعلا في مجمله هو انتقال من الغفلة إلى اليقظة، مبينا مراحلها وهي الانتقال من الإيمان العقلي إلى الإيمان الذوقي، ومن الشعور القلبي بأفعال الله إلى الشعور بصفاته، إلى الاستغراق الروحي، ونجد استعمال هذا المصطلح-الانتقال- عند ابن عربي فالسلوك عنده هو «انتقال من منزلة عبادة إلى منزلة عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريقة القرية من الله إلى عمل من شروع بطريق القرية على الله بفعل وترك، وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام، ومن اسم الهي إلى اسم، ومن تجلى إلى تجلى، ومن نفس إلى نفس، والمنتقل هو السالك»⁽¹⁾. فالانتقال بالمعنى والصورة وبالعلم مقارب للانتقال من الإيمان العقلي إلى غاية الاستغراق الروحي كما وضح سعيد حوى، إلا أنه لم يستعمل مصطلح الانتقال وحده للدلالة على السلوك والسير إلى الله، بل اعتمد مصطلح الطريق الذي يدل عند بعض المتصوفة التجربة الصوفية بكاملها كما استخدم مصطلح السلوك نفسه، والحديث عن السلوك يدفع بالضرورة للحديث عن الفاعل وهو:

(1) محي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، 4/15

5- السالك أو السالك: اصطلاح الصوفية على الراغب في سلوك الطريق في مختلف مراحل سيره باصطلاحات مختلفة تصف حاله، فاصطلاح عليه بالمريد اذا صح له الابتداء لكن لم يرتسم بعد بحال أو مقام، ويطلق هذا المصطلح كذلك على السالك عموما في أي مرحلة من مراحل سيره، وقد يُخص المريد الواصل بمصطلح المراد «والمراد: العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل النهايات، وعبر الأحوال والمقامات، والمقاصد والإرادات، فهو مراد أريد به ما أريد، ولا يريد إلا ما يريد»⁽¹⁾. كما اصطلاحوا عليه بالمتوسط، والمنتهي، والمبتدئ إشارة للدرجة التي بلغها في السير، وما يعرض عليه من أحوال، وما يحصل من مقامات في كل مرحلة، وقد استعمل سعيد من مصطلحات القوم هاته لفظ المريد ولفاظ المبتدئ ولفظ السالك بشكل أوسع إضافة إلى مصطلح الأخ كلها للدلالة على: «السائر إلى الله المتوسط بين المريد والمنتهي»⁽²⁾ أي السالك في الاصطلاح الصوفي.

والسلوك النفاذ في الطريق⁽³⁾ فالسين واللام والكاف أصل يدل على نفوذ شيء في شيء، سلكت الشيء في الشيء أي أنفذته⁽⁴⁾ والمعاني السابقة للسالك لصيقة بالمعنى اللغوي، ويمكن وضع تعريف للسالك عند سعيد حوى من خلال النصوص التي أورده فيها؛ على أنه السائر إلى الله سبحانه وتعالى على ضوء الكتاب والسنة، مجتهدا في التخلق بالأخلاق النبوية، وساعيا للتحقق بالعبودية محققا حكمة الله منها وهي الإصلاح في الأرض. وقد اشترط حوى في السالك - حتى يكون السلوك صحيحا - العلم والذكر، فالعلم دليل يوضح الطريق بمعرفة الأوامر الإلهية وحكمتها حتى تُنفذ الأوامر وتحقق الحكمة، أما:

(1) رفيق العجم: مرجع سابق، ص. 877.

(2) عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، ط1، دار المنار، 1992، ص. 119.

(3) الراغب الاصفهاني: مفردات الفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، د. ط، دار القلم، 2009، ص. 421.

(4) ابن فارس: مرجع سابق، ص. 9.

6- الذكر: هو زاد الطريق لاستشعار المعية الإلهية في السير، وقسم السالك بقدر العلم والذكر عندهم إلى نوعين، فالنوع الذي غلب عليه الذكر مع أخذه حظاً من العلم يسمى بطريق الإشراق، والنوع الذي غلب عليه العلم مع أخذه حظاً من الذكر سمي بطريق البرهان، وتقسيمه هذا استند فيه إلى نوعية الناس بشكل عام، فصنف من منهم طاقته كبيرة على اخذ العلم، والصنف الآخر قدرته على العمل والذكر والعبادة أكبر، لكن الطريقتين متلازمان، فكل ركن يقوم على الآخر ولا يتم إلا به، وقد اعتمد أقوال ابن البنا السرقسطي في العلم والذكر في تقسيمه هذا.

وبالنظر إلى أنواع السالك عند المتصوفة، يمكن أن نقول أنهم اعتمدوا أيضاً العلم والذكر في تقسيماتهم، فمثلاً يقسم ابن عربي السالك إلى: سالك بنفسه وهو الذي يحاول التقرب إلى الله ابتداءً ويكون التقرب بالفرائض والنوافل الموصلة إلى محبة ربه⁽¹⁾، التقرب بالفرائض يدل على العلم بالأوامر والنواهي، والامتنال بها لنيل المحبة، في حين أن السالك بربه كما يطلق عليه ابن عربي، وهو الذي يكون الحق سمعه وبصره، بعد أن يتحقق بالنوافل. فمن كان الحق سمعه وبصره كان الذكر مقامه لأن المعية مشروطة بالذكر، فغير الذاكر منقطع عن ربه محروم من عونته وفضله، والقلب الحاضر عند ربه لن يمل من ذكره.

لذلك يضيف القشيري لمصطلح الذكر لفظ الامتداد، فيطلق عليه امتداد الذكر، لأن المريد يجاهد نفسه لأدائه، والقيام بالخلوة للتفرغ له في بدايات سيره حتى يكون عنده بدل أنفاسه، ومع امتداده يحصل المقامات على اختلافها «ويستمر المريد في الذكر حتى يغيب به عن جميع الأشياء، ويتوقف ذلك تماماً على توفيق الله إياه، وتقوية إرادته ثم يغيب بالذكر عن نفسه، ثم يغيب بالذكر عن الذكر... ولا يزال يترقى في كل غيبة وحضور إلى غيبة أخرى»⁽²⁾.

(1) محي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، مرجع سابق، ص. 16

(2) أبو القاسم القشيري: ترتيب السلوك للقشيري، تحقيق: إبراهيم بسبوني، د. ط، د. د، ص. 27

والذكر عند سعيد هو ان يلزم المريد نفسه بأنواع من الطاعات، والعبادات، إلى جانب الفرائض، وقد أعطى للذكر كواحد من العبادات أهمية كبيرة، لأن الاطمئنان الذي يجلبه للذاكر يعتبر وضعاً متقدماً في السير الإيماني، فترتيب ورد من الطاعات على رأسها الذكر، يساهم بقدر عال في إصلاح القلب، والوصول إلى القلب السليم الذي يمثل بداية نقطة الاستقامة.

7- الاستقامة: وضع سعيد لتحقيق الاستقامة خطوات، أولاً أن يسعى العبد إلى إصلاح قلبه الذي يكون به التلقي عن الله، واصطلح على هذا بالسير القلبي وهو الوصول إلى الإيمان الخالص، ومعرفة الله الكاملة، معرفة ذوقية قلبية صافية، فالسير عند القوم: «... سير القلب والقرب قرب الأسرار والعمل عمل المعاني بالجوارح لله ولعباده»⁽¹⁾، فمن الغايات الأولى من هذا السير عنده هو حصول سلامة القلب، وقد اصطلح على المراحل الموصلة للقلب السليم بفرائض التسليك، وهي حق مرضى القلوب في إصلاح قلوبهم، يكون ذلك من الانتقال من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة، ومن روح شاردة عن باب الله إلى روح متحققة بالعبودية لله، بمعنى الانتقال من ذات اقل كمالات إلى ذات أكثر كمالات (أي كل ما يدل عليه مصطلح الانتقال) مع الاستمرار في إعطاء هذه الروح الزاد (مادل عليه مصطلح الذكر)، وتعاهدها من فترة إلى أخرى بالقيام بعملية تجديد الإيمان، أي ما اصطلح عليه المتصوفة بالمراقبة، فمراقبة الله في السر والعلانية خير ما يلزم به العبد من عمل وعبادة، فالمراقبة تقتضي حال القرب⁽²⁾، فالاستمرار بالذكر في الانتقال من حال إلى حال، وتعاهد النفس بالمراقبة كتعاهدها بالمجاهدة، يحقق القرب إلى الله تعالى، وهذه الخطوات الثلاثة يجعلها القشيري لب الاستقامة قال: «الاستقامة ثلاث مدارج التقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تقويم القلوب والاستقامة من حيث تقريب الأسرار... فمن لم يكن مستقيماً في صفاته لم يرتق من مقام إلى غيره»⁽³⁾.

(1) رقيق العجم: مرجع سابق، ص. 486.

(2) أبو النصر سراج الطوسي: مرجع سابق، ص. 83.

(3) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص. 356.

ففي السير وبالتزقي في التزكية، بالانتقال من حال إلى حال أفضل، يكون تأديب النفس، وبالدكر تقوّم القلوب وتطمئن، وبمراقبة الله يحصل القرب، والسالك في طريقه هذا وفي سلوكه كل هذه المراحل يحتاج إلى إرشاد، وتعليم، وتوضيح لكل الأحوال التي يمر بها ويتلقاها.

8- المربي أو المعلم أو الولي المرشد أو الشيخ الكامل: ركز سعيد حوى على قضية العلم بالنسبة للمريد على أنه أنجع وسيلة لإصلاح القلوب، وبما أن القلوب تتفاوت في فهمها ومواقفها فلا بد لها من عملية إصلاحية علاجية، وهذا دور المرشد، فحضور الشيخ في مراحل السلوك عند سعيد مرحلة مهمة، وضرورة يطلبها السير حسب حاجة السالك له، ويشترط في الشيخ الأهلية الكاملة، لأن إصلاح القلب الذي هو أهم مرحلة يركز عليها الشيخ في بداية التربية الروحية، يتوقف نجاح المريد فيها بالدرجة الأولى على صدق الشيخ، وخبرته بالطريق، وجمعه بين علم الظاهر والباطن، والفشل فيها يدل على عدم صدق المريد أو على جهل المربي، ما يجعل المريد ينقطع عن سيره، فيكون عرضة لإلقاءات الشيطان، وإذا كان هذا الانقطاع سببه عدم صدق المريد، فإن المربي العالم بالطريق مسؤول على تولى المريد، وإرشاده لطرق التزكية السليمة، حتى إذا سلم القلب، وصلح يكون هو الموجّه، لا الموجّه من قبل الشهوات، ويكون هذا باستغراق العبد في الذكر، والخلوات المليئة بالتعب، حتى ترد عليه الأحوال، ويحصل المقامات التي هي آثار معرفة الله، فيصل المريد للتوحيد الخالص، ما يجعله يعرج في سلم الارتقاء الروحي، فيحقق سلامة تامة للنفس وصحة كاملة للقلب.

استعمالات سعيد لهذا المصطلح كانت متنوعة، لكن غلب استعمال لفظي المرشد والمعلم وذلك لتداولهما بين الناس عامة، وبين أفراد الحركة خاصة، فيستعمل في مواضع مختلفة لفظ المتعلم للدلالة على المريد، والمعلم للدلالة على الشيخ، فالمتعلم عنده لا بد أن يكون لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائه وأذعنت له بالكلية، ومهما أشار عليه المعلم بطريقة في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه

إذ التجربة تطلع على دقائق ليستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها، يتضح أن علاقة المعلم بالمتعلم عند سعيد مطابقة تماما لما وصفه الصوفية عن علاقة المريد بالشيخ، فقد اشتهر عنهم أن المريد يجب أن يكون كالميت في يد غاسله، وأن الشيخ هو كعبة المريد التي يتوجه إليها في سائر مهماته «فالشيخ هو والد السر في اصطلاحاتهم ويجب على الولد عدم العقوق لوالده، وليس للعقوق ضابط يرجع إليه إنما الأمر عام في سائر الأحوال، وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الغاسل»⁽¹⁾.

9- التحقيق والتحقيق: في حديثه عن الطاعات، وأداء العبادات، استعمل مصطلح التحقيق للدلالة على سعي المريد في الوصول إلى روح العبادة الموصل إلى العبودية، اسمي أمر إلهي للعبد، فالخشوع وحضور القلب في كل الأعمال الصالحة، والعبادات على اختلافها، يسبغ على العبد ثمار هذه العبادة الخالصة لله وحده، من محبة، ورجاء، وخوف، وغيرها من مقامات اليقين «فالحقق هو الذي لا يحجبه مقام عن مقام، ولا منزل عن منزل، فهو الذي يعمر المنازل جملا وتفصيلا»⁽²⁾.

فتحصيل المقامات من علامات التحقيق بالعبادات «فما دام المريد يريد التحقيق بالأعمال الصالحة فهو في مقام الإسلام، فإذا أراد التحقيق بالموعودات الغيبية فهو في مقام الإيمان، وإذا كان مطلوبه الرب كان في مقام الإحسان»⁽³⁾، والإحسان هنا سارٍ في المقامين الأولين لكونه عين التحقيق بالشيء، فالسالك الذي يريد الله في أعماله كلها يتمكن من تحقيق حكمة الله من العبادات والفرائض على وجه الخصوص، ويرى سعيد أن المربي الذي لا يربي مريديه على تحقيق حكمة الله مقصر، ولا يمكن أن يستقيم مع تقصيره النفوس ولا حياة الناس.

(1) عبد الوهاب الشعراني: الأنوار المقدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق: طه عبد الباقي سرور، د.ط، المكتبة العلمية، بيروت، 17/2

(2) لسان الدين ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، الرباط، 629/2

(3) المرجع نفسه: ص. 627

نتائج وملاحظات:

بعد عرض مصطلحات التصوف عند سعيد حوى وتحليلها، ومقارنتها بمصطلحات التصوف عند أهل الطريق تبين مايلي:

- حضور متواضع لآليات الوضع المصطلحي في نصوصه إلا أنه استخدم أهم وسائله، فقد استخدم المجاز في وضع مصطلحي صوم القلب، والفطر المجازي فوسع معنى الصوم والفطر بتحميلهما معاني جديدة نسخ بهما المعنى المعتاد لهما، إلا أن إضافة لفظ المجازي لم يكن ضروريا لأن المعنى الذي دل عليه الفطر يؤكد مجازية دلالة المصطلح، كما استعمل التركيب لوضع مصطلح الاستغراق الروحي وذلك لإبعاد القارئ عن مصطلحات صوفية تحمل المعنى الذي أراده بالاستغراق وتحمل معاني أخرى قد تشوش الفهم على المبتدئ في هذا العلم.

- التسليك عنده يتمحور حول مصطلحات ثلاث وهي الانتقال الذي يمثل عموم السير والذكر بدوامه في كل الطريق مع المراقبة المستمرة لله في الأقوال والأفعال والأسرار.

- استخدم عدّة مصطلحات للدلالة على معنى واحد بغرض التبسيط، فالشيخ هو المري وهو المعلم وهو المرشد، كما أن المريد هو الأخ وهو السالك فبين أن المراد بكل هذه المصطلحات هو الدلالة على معنى واحد ودور واحد وهو التربية والإرشاد.

- مطابقة معاني المصطلحات التي وضعها وتبناها لمعاني مصطلحات الصوفية بكل تفرعاتها، فاعتراضه لم يكن على المعاني والمفاهيم الخاطئة التي يعتقدونها فحسب، وإنما على اصطلاحاتهم التي يحمل المصطلح الواحد فيها عدة معان، يمكن أن يسوق معنى واحدا منها القارئ بعيدا عن المنهج الرباني، لذلك كان هدفه الخروج من الاشتراك اللفظي، الذي تميز به المصطلح الصوفي إلى التبسيط وتحميل المصطلح الواحد معنى واحدا سليما يمكن الراغب في سلوك الطريق من الفهم والسير الصحيحين.

- أغلب مصطلحات التصوف عند سعيد كانت قريبة بل مستقاة من الألفاظ القرآنية وذلك حتى تنتفي الغرابة على القارئ، ويؤصل للمفاهيم الصوفية من مصدرها الذي نبعت منه وهو القرآن والسنة.

المصادر والمراجع:

- 1- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، بيروت، دار الفكر، 2003.
- 2- أبي نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، 1960.
- 3- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الريان للتراث، د.ت.
- 4- الحارث بن أسد المحاسبي، آداب النفوس، تحقيق: محمد فتحي السيد، ط1، القاهرة، دار السلام، د.ت.
- 5- الحكيم الترمذي، آداب المريدين وبيان الكسب، تحقيق: عبد الفتاح بركة، القاهرة، مطبعة السعادة، د.ت.
- 6- جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.
- 7- ديوان محمد الوفا الشاذلي، تحقيق: مهدي أسعد عرار، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
- 8- عبد الحليم محمود: إبراهيم ابن ادهم شيخ الصوفية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1972.
- 9- عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، ط1، دار المنار، 1992.
- 10- عبد الله عقيل، من أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة، ط7، الرياض، دار البشير، 2008.
- 11- علي القاسمي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ط1، مكتبة لبنان، 2008.
- 12- محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1991.
- 13- شرح معجم اصطلاحات الصوفية، شرح: سعيد هارون، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008.
- 14- ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، تحقيق عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ج4.
- 15- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- 16- أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، د.ط، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، 1989.
- 17- ترتيب السلوك للقشيري، تحقيق: إبراهيم بسوي، [دون بيانات النشر]
- 18- أحمد ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، د.ت.
- 19- أسماء خوالدية، المحبة عند الصوفية بين تحفظ العذريين ورعونه الفتيان، ط1، الرباط، دار الأمان، 2016.
- 20- الحارث بن أسد المحاسبي، بدء من أناب إلى الله، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط1، القاهرة، دار السلام، 1991.
- 21- الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، د.ط، دار القلم، 2009.
- 22- حسن الشرقاوي، معجم الفاظ الصوفية، ط1، القاهرة، مؤسسة المختار، 1987.
- 23- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ط1، مكتبة لبنان، 1991.
- 24- سعاد حكيم، المعجم الصوفي، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1981، (19).
- 25- سعيد حوى، هذه تجربتي هذه شهادتي، القاهرة، دار التوفيق النموذجية، 1987.
- 26- عبد الحليم محمد قبس، معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية، بيروت، مكتبة لبنان، 1987.

- 27- عبد الوهاب الشعراي، الأنوار المقدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق: طه عبد الباقي سرور، المكتبة العلمية، د.ت.
- 28- علي محمد جمعة، المصطلح الأصولي مشكلة المفاهيم، ط1، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، د.ت.
- 29- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط6، بيروت، مؤسسة الرسالة، د.ت
- 30- لسان الدين ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكتاني، الرباط، دار الثقافة، د.ت.
- 31- سعد عبد الله عاشور: المصطلح الإسلامي في مواجهة المصطلحات الغازية، بحث مقدم لمؤتمر الاسلام والتحديات المعاصرة، افريل 2008.
- 32- محمد بوكرن، تحديد المنهج في علم أصول الفقه -منهج الدراسة المصطلحية أم نموذجاً- يوم علمي تحت عنوان: "علم أصول الفقه وسؤال التجديد"، والذي نُظم يوم السبت الموافق لـ 11 نونبر 2013 في مقر مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،

<https://www.youtube.com/watch?v=1nDQRW2F1IE>